سلسلة محاضرات الإمارات 65

الصهيونية وتأثيرها في علاقة الإسلام بالغرب

د. عبدالوهاب محمد المسيري

مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية

بسم الله الرحمن الرحيم

تأسس مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية في 14 آذار/ مارس 1994، كمؤسسة مستقلة تهتم بالبحوث والدراسات العلمية للقضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية، المتعلقة بدولة الإمارات العربية المتحدة ومنطقة الخليج العربي على وجه التحديد، والعالم العربي والقضايا الدولية المعاصرة عموماً.

من هذا المنطلق يقوم المركز بإصدار «سلسلة محاضرات الإمارات» التي تتناول المحاضرات، والندوات، وورش العمل المتخصصة التي يعقدها المركز ضمن سلسلة الفعاليات العلمية التي ينظمها على مدار العام، ويدعو إليها كبار الباحثين والأكاديميين والخبراء؛ بهدف الاستفادة من خبراتهم، والاطلاع على تحليلاتهم الموضوعية المتضمنة دراسة قضايا الساعة ومعالجتها. وتهدف هذه السلسلة إلى تعميم الفائدة، وإثراء الحوار البنّاء والبحث الجاد، والارتقاء بالقارئ المهتم أينما كان.

إهداء 2005

مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية

الإمارات العربية المتحدة

سلسلة محاضرات الإمارات

ـ 65 ـ

الصهيونية وتأثيرها في علاقة الإسلام بالغرب

د. عبدالوهاب محمد المسيري

تصدر عن

مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية

محتوى المحاضرة لا يعبّر بالضرورة عن وجهة نظر المركز

ألقيت هذه المحاضرة يوم الأحد الموافق 17 آذار/ مارس 2002

الطبعة الأولى 2003

ISSN 1682-122X

ISBN 9948-00-438-8

توجه المراسلات إلى رئيسة التحرير على العنوان التالي:

سلسلة محاضرات الإمارات - مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية

ص. ب: 4567

أبوظبي - دولة الإمارات العربية المتحدة

هاتف: 6423776 - 9712 +

فاكس: 6428844 - 9712 +

e-mail: pubdis@ecssr.ac.ae
pubdis@ecssr.com

Website: http://www.ecssr.ac.ae
http://www.ecssr.com

مقدمة

ثمة قضية منهجية قد تبدو إجرائية أو حتى شكلية ولكنها في غاية الأهمية وهي كيفية ترجمة المصطلح. وقد واجهتني القضية بحدّة حينما أردت ترجمة مصطلح (Feminism)؛ فالترجمة الدقيقة الأمينة التي شاعت هي "الأنثوية" أو "النسوية"، وهي كلمات عربية لا تعني شيئاً على الإطلاق، وليس لها أي مدلول سوى أن المرأة امرأة والأنثى أنثى! والترجمة لم تنقل المفهوم الكامن وراء كلمة (Feminism). كما لاحظت أن الحقل الدلالي للكلمة بدأ يتداخل مع مصطلحات ومفاهيم سابقة مثل "حركة تحرير المرأة" (women's liberation movement).

وبعد شيء من الدراسة والتحليل وجدت أن حركة تحرير المرأة تختلف تماماً عن الـ(فيمينزم)، فالمفهوم الكامن وراء المصطلح الأول يختلف تماماً عن المفهوم الكامن وراء الثاني؛ فالهدف من الحركة النسوية هذه في تصوري ليس تحرير المرأة وإنما فصلها عن الرجال وتأكيد هويتها الفردية على حساب هويتها الاجتماعية من حيث هي أم وأخت وابنة، ومن ثم هي دعوة لأن تتمركز الأنثى حول نفسها وجنسها، فترجمت كلمة (فيمينزم) بمصطلح "التمركز حول الأنثى". وهذه الترجمة تعكس إدراكي للمفهوم الكامن وراء المصطلح ورفضي له، فأنا مع تحرير المرأة ولكنني ضد التمركز حول الأنثى، كما أنني ضد التمركز حول الرجل وضد أي إنسان أو تشكيل قومي أو حضاري يتمركز حول نفسه.

ولنضرب مثلاً آخر وهو مصطلح "الصهيونية العالمية"؛ هذا المصطلح العربي هو الترجمة الأمينة والدقيقة للمصطلح الإنجليزي

(World Zionism) . ومن الواضح أنه حين نقلنا المصطلح إلى لغتنا ترجمناه بدقة ببغائية؛ إذ إننا لم ندرك أن وراء المصطلح مفهوماً، وأن هذا المفهوم نابع من رؤية أيديولوجية شاملة، ليست بموضوعية أو محايدة، وإنما تعبِّر عن آمال وطموحات ومشروعات أصحابها؛ فالصهيونية تدعي أنها هي القومية اليهودية، أي إنها قومية اليهود، كل اليهود، أينما كانوا، وحيث إن اليهود موجودون في كل بقاع الأرض: في فرنسا والهند والصين وتنزانيا، فهي "عالمية".

ولكننا لو دققنا النظر وتجاوزنا الادعاءات الصهيونية والمصطلح/ المفهوم/ الادعاء الذي اختاره الصهاينة لمنظمتهم وهو "المنظمة الصهيونية العالمية" (World Zionism Organization)، لوجدنا أن الصهيونية ليست ظاهرة عالمية، فهي لا توجد في أفريقيا (باستثناء الجيب الاستيطاني السابق في جنوب أفريقيا)، ولا في آسيا (باستثناء الجيب الصهيوني في فلسطين)، ولا في أمريكا اللاتينية (باستثناء بيونس آيريس في الأرجنتين وربما ريو دي جانيرو في البرازيل). وهذا يعود لسبب بسيط وهو أنه منذ نهاية القرن التاسع عشر تركزت الغالبية الساحقة ليهود العالم في العالم الغربي (أكثر من 90٪)، ثم ازداد تركُّزهم في القرن العشرين. فلا يوجد في الصين سوى عشرة يهود، ولا يوجد في الهند سوى بضع مئات. والصورة العامة الآن ليهود العالم هي أنهم مركزون إما في العالم الغربي (وبخاصة الولايات المتحدة الأمريكية) وإما في البلاد الاستيطانية المختلفة التي تضم كتلة بشرية غربية مهيمنة (مثل أستراليا وجنوب أفريقيا). ومن الملاحظ أن كل الحركات الفكرية والسياسية والدينية الحديثة نشأت في الغرب وبين يهود الغرب، واستجابةً لحركات دينية وفكرية

وسياسية غربية، وهي حركات لا يمكن فهمها إلا من خلال وضعها في سياقها الحضاري الغربي. فحركة الهسكلاه (التنوير) بين أعضاء الجماعات اليهودية على سبيل المثال؛ ما هي إلا صدى لحركة الاستنارة في أوربا في القرن التاسع عشر، واليهودية الإصلاحية ما هي إلا صدى لحركة الإصلاح الديني في الغرب، بل إن الصهيونية ذاتها هي صدى للتشكيل الاستعماري الغربي وللأفكار القومية الشوفينية والعنصرية التي شاعت في أوربا في أواخر القرن التاسع عشر.

والشيء نفسه ينطبق على ترجمتنا لكلمة (Zionism) ذاتها. فقد ترجمناها بأمانة بالغة وقلنا "الصهيونية"، وهي ترجمة بلا شك أمينة ولكن وراءها مفهوماً واضحاً ومحدداً يتبدى في كلمة "صهيون"، فهذه الكلمة تحول فلسطين على المستوى اللغوي إلى صهيون، وصهيون في الوجدان الديني اليهودي هو البلد الذي "سيعود" إليه اليهود لأنهم مرتبطون به ارتباطاً عضوياً، ولأن الإله وعدهم إياه، ولذا فهم لهم حقوق مطلقة فيه تبرر استيلاءهم عليه وطرد سكانه منه. ونحن بطبيعة الحال لا نتفق مع المفهوم الكامن وراء الكلمة، ومع هذا دخلت الكلمة المعجم السياسي العربي، مع أنه كان من المفروض ألا نترجم الكلمة والمفهوم حرفياً، وإنما كما نراها نحن في الواقع، وبالتالي كان لابد من أن نقول: "الاستعمار الاستيطاني الإحلالي الصهيوني"، أو "الاستعمار الصهيوني" أو "الصهيونية الاستعمارية".

وقل الشيء نفسه على كلمة (settlement)، التي ترجمناها مرةً أخرى بأمانة بالغة بأنها "مستوطنة"، وهي كلمة مأخوذة من "التوطين" و"الوطن"، مع أنه كان من المفروض أن نترجمها بكلمة "مستعمرات

استيطانية". (من الطريف أن كلمة "استعمار" ذاتها مأخوذة من كلمة "عَمَّر" و"عمران"، وكان المفروض ترجمتها "اغتصاب"، "استيلاء"... إلخ، ولكن حقل الكلمة الدلالي أصبح سلبياً على الرغم من أن جذرها اللغوي يحمل إيحاءات إيجابية، وأصبحت تفيد الاغتصاب والاستيلاء والتدمير). ويزداد الأمر سوءاً وببغائية حين نتحدث عن "مستوطنات غير شرعية"، وهي ترجمة لعبارة (illegal settlements)، التي تُستخدم في الخطاب السياسي الإسرائيلي للإشارة إلى المستوطنات التي تُشيَّد من دون تصريح من الدولة الصهيونية، وكأن هذه الدولة هي صاحبة الحق المطلق فيها، وكأنها لم تغتصب هذه الأرض كلها من العرب.

باختصار شديد، نحن لم ننجح في حل إشكالية فكرية منهجية كبرى؛ وهي: هل نترجم المصطلح حرفياً، أو نترجم المفهوم الكامن وراء المصطلح؟ وإن ترجمنا المفهوم ووجدنا أنه لا يتفق مع إدراكنا لطبيعة الظاهرة فهل نبقيه كما هو أو نتحفظ عليه كأن نقول: "الصهيونية (التي تدَّعي أنها) عالمية" أو "الصهيونية (التي يُقال لها) عالمية" أو "الصهيونية العالمية (أي الغربية)" وهكذا؟ إن فعلنا ذلك فقد أدركنا الواقع وسميناه حسب هذا الإدراك، ومن يستطع تسمية الأشياء فإنه يقطع شوطاً طويلاً في محاولة التعامل معها. كما أن المصطلح/ المفهوم الذي نقترحه أكثر دقة وتفسيرية من المصطلح الشائع "الصهيونية العالمية"، فهذا المصطلح الأخير يضخِّم الصهيونية ولا يعكس واقعها المتعيِّن أو علاقتها شبه العضوية مع العالم الغربي، ولاسيما الولايات المتحدة الأمريكية. واتجاهنا نحو الترجمة الأمينة الببغائية، التي نتخلى من خلالها عن رؤيتنا ونتبنى رؤية

الآخر – عن وعي أو عن غير وعي – هو انعكاس لموقفنا الانهزامي المتلقي لمفاهيم وقيم الحضارة الغربية دون نقد أحياناً، ودون فهم أحياناً أخرى.

القضية الثانية التي سنتناولها هي قضية الإسلام وعلاقته بالغرب، وهي ليست بعيدة الصلة بالقضية السابقة، وابتداءً يجب أن نتذكر أن الإسلام دين والغرب تشكيل حضاري، ومن ثم فلابد من أن نطرح السؤال المنهجي الآتي: كيف يمكن أن نناقش علاقة دين نحن نؤمن به بتشكيل حضاري علماني يضم عدة ملايين من المسلمين؟ لا يمكن أن نبحث هذه القضية إلا بالبحث عن قاسم مشترك يمكّننا من إدراك الإسلام بوصفه حضارة أو على الأقل بوصفه رؤية حضارية، وإدراك الغرب هو الآخر بوصفه رؤية حضارية، وهذا ما سنحاول إنجازه في هذا الجزء من الدراسة.

أذهب إلى أنه يوجد عدة عناصر تؤدي إلى الصدام بين الإسلام والغرب، لكنه في الوقت نفسه توجد أيضاً بعض العناصر التي تشكّل أساساً للتصالح؛ فعلى سبيل المثال، من الأسباب التاريخية التي تؤدي إلى العداء بين الرؤيتين الحضاريتين أنه عبر التاريخ كان اتساع رقعة العالم الإسلامي يتم على حساب العالم الغربي من حيث هو تشكيل حضاري مسيحي، والعكس صحيح؛ فحينما كان يتسع العالم الغربي كان ذلك يتم على حساب العالم الإسلامي. فبعد ظهور الإسلام وانتشاره خارج الجزيرة العربية على سبيل المثال اتسعت رقعة العالم الإسلامي على حساب الإمبراطورية البيزنطية وعلى حساب الحكم القوطي في شبه جزيرة أيبريا، كما اتسعت الدولة العثمانية بعد ذلك فاستولت على جزء كبير من العالم المسيحي وأسقطت الدولة البيزنطية، واستولت على أجزاء مجاورة

للأراضي الروسية. وقد اتسعت رقعة العالم الغربي على حساب العالم الإسلامي ابتداءً بحروب الفرنجة واستيلائهم على فلسطين، ثم اتسعت الدولة الكاثوليكية في شبه جزيرة أيبريا فطردت المسلمين منها، ثم استولت الدولة الروسية على كل الخانات التركية، واستولى التشكيل الاستعماري الغربي على أجزاء كبيرة من العالم الإسلامي، إلى أن انتهى الأمر بتقسيم الدولة العثمانية واقتسام العالم الإسلامي بأسره تقريباً، فرأى كل أنواع الاستعمار الغربي: الاستعمار التقليدي الإنجليزي في ماليزيا والهند ومصر والسودان والعراق ونيجيريا، والفرنسي في الجزائر وتونس والمغرب وسوريا ولبنان والسنغال، والإيطالي في ليبيا وإريتريا، والهولندي في إندونيسيا، ثم كان هناك استعمار استيطاني في الجزائر واستعمار استيطاني إحلالي في فلسطين. باختصار شديد كان اتساع دار الإسلام في معظم الأحوال يتم على حساب الغرب، واتساع العالم الغربي في معظم الأحوال يتم على حساب دار الإسلام.

ومن الأبعاد الأخرى التي يجب أن ندركها أنه على عكس ما يتصور الكثيرون، تزيد درجة التوتر عادة بين الجماعات البشرية المتجاورة، وبخاصة إذا كان هناك نقاط تشابه كثيرة بينهم، وتتراجع درجة التوتر بل وتتلاشى أحياناً بين الجماعات البشرية المتباعدة جغرافياً وحضارياً؛ فدرجة التوتر بين العالم الغربي وتايلند على سبيل المثال، ليست عالية إذ لا توجد حدود مشتركة بينهما، ولا يوجد نزاع على الموارد أو على الأرض (على الأقل قبل ظهور الاستعمار الغربي الذي جعل العالم ساحته)، أما في حالة العالم الإسلامي فالنزاع بيننا وبين العالم الغربي على الموارد وعلى الأرض له امتداد تاريخي، وقد وصل هذا النزاع ذروته بعد أن اقتسمت الدول الاستعمارية الغربية العالم.

ومن أسباب التوتر الأخرى تشابه كل من العقيدتين الدينيتين الإسلامية والمسيحية في كثير من الوجوه؛ فالعقيدة الإسلامية تشترك مع العقيدة المسيحية في الإيمان بإله متجاوز للطبيعة والتاريخ، وهو إله العالمين، ليس مقصوراً على شعب بعينه أو أرض بعينها (كما هي الحال في عقيدة الشنتو اليابانية)، وهو إله شخصي (بمعنى أنه ليس بقوة محايدة عمياء مثل الكهرباء)، وهو إله غير منظور ولكنه لم يهجرنا ولم يهجر العالم (فهو لا ينام آلاف السنين كما هي الحال في الهندوكية التي تذهب بعض مذاهبها إلى أن العالم ما هو إلا حلم الإله، وبالتالي فالعالم كله ما هو إلا وهم في وهم! الظلم وهم والعدل وهم، والزيف وهم والحقيقة وهم، أي إن الحقيقة نسبية!)، وقد أرسل لنا هذا الإله كتباً سماوية تهدينا سواء السبيل وتحوي منظومات أخلاقية متشابهة في بعض الوجوه. والتاريخ في الإسلام والمسيحية له هدف وغاية، ووجود الإنسان في الكون ليس أمراً عبثياً. وقصة الخلق في كل من الإسلام والمسيحية متشابهة، إذ نفخ الإله من روحه في المادة التي خلقها من العدم، فظهر الإنسان بكل ما يتسم به من ثنائية (ثنائية الجسد والروح، والخير والشر)، وهي ثنائية تجعله مختلفاً بشكل جوهري عن الكائنات الأخرى، منفصلاً عن عالم الطبيعة.

ونقاط التشابه هذه بين العقيدتين الإسلامية والمسيحية مصدر توتر؛ لأن العالم الغربي يتردد في تصنيفنا كعقيدة مستقلة لها رؤيتها المستقلة للكون ترفض التجسُّد والكهنوت والطقوس الكثيرة والتطرف في الغيبية واللاعقلانية. ويعود التردد إلى مواطن التشابه بين العقيدتين، فهم يصنفون الإسلام على أنه مجرد هرطقة مسيحية وانحراف عن الجوهر

المسيحي. ونحن نفعل الشيء نفسه؛ إذ نرى الإنجيل على أنه كتاب مقدَّس محرَّف أفسده المسيحيون أنفسهم، وأن الإسلام هو الدين الصحيح. هذا التردد والإخفاق في التصنيف لا يسم علاقة العالم الغربي بالعقائد الآسيوية، فهي مختلفة بشكل جوهري عن العقيدة المسيحية، فهي ديانات حلولية يتوحد فيها الخالق بالمخلوق، ويحل في شعب بعينه وفي أرض بعينها، وهي عقائد تتسم بتعدد الآلهة وبمنظوماتها المعرفية والأخلاقية والجمالية المختلفة جوهرياً عن المنظومات المسيحية.

إن الرقعة الدينية المشتركة تباعد بيننا وبين الغرب، إذ تجعله يتوقع منا أن نكون نسخة حرفية منه، وحينما نرفض بعض أوجه تصوره للإله وللمقدَّس يشعر بأننا نتحداه. بينما إن فعل ذلك أحد أتباع عقيدة الشنتو فهو لا يُنكر عليه ذلك لأنه مختلف عنه تماماً، ولذا فهو لا يكترث برؤيته للإله أو للمقدَّس، ولا يشعر أن مثل هذه الرؤية تتحداه.

ومن العوامل الأخرى التي تباعد بين العالمين الإسلامي والغربي أن الإنسان دائماً يحدد هويته في مقابل الآخر، وهذا أمر عادي في معظم الأحوال، ولكنه إذا ما أخذ شكلاً متطرفاً فإنه يشكل خطراً؛ إذ إنه يمكن أن يتحول من إحساس كامن إلى صراع ساخن. وفي الغرب تحدثوا منذ منتصف القرن التاسع عشر عن الخطر الأصفر (الصين)، وبعد ذلك الخطر الأحمر (الدول الشيوعية)، ومع اختفاء الخطرين بدؤوا يتحدثون في الغرب الآن عن الخطر الأخضر (الإسلام). وقد زادت درجة التوتر بين العالمين الغربي والإسلامي مؤخراً مع تزايد عدد المهاجرين من دول وجماعات إسلامية مجاورة لأوربا (الأتراك والمغاربة والأكراد)، وكذلك مع تراجع معدلات الإنجاب في الدول الغربية بما في ذلك الدول الكاثوليكية التي

كانت تتمتع بمعدلات تكاثر عالية. وهم يتحدثون الآن في العالم الغربي عن التهديد الديمجرافي الإسلامي، وهو تهديد قديم، إذ يبدو أنه عبر التاريخ كانت الأمة الإسلامية تتزايد بمعدلات أكبر بكثير من معدلات الزيادة بين المسيحيين (ربما بسبب مؤسسة الرهبنة وفكرة العذراء كمثل أعلى). ولكن معدلات الزيادة أصبحت ملحوظة، وخاصةً أن المهاجر المسلم أو العربي حينما يهاجر إلى بلد غربي فهو يذهب بنية الاستقرار بشكل دائم، على عكس نمط الهجرة القديم، حينما كان المهاجر يستقر في بلد غربي بشكل مؤقت ليجمع بعضَ الأموال وبعدها يعود إلى وطنه.

هذه الأقليات المسلمة الكبيرة، تتسم بقدر كبير من التماسك الإثني والديني، وقد بدأ أعضاؤها يعرفون حقوقهم ويدركون قواعد اللعبة السياسية داخل النظم السياسية الغربية. ومن المعروف أن الجيل الأول من أعضاء الأقليات المهاجرة عادةً ما يكون مشغولاً بالبحث عن وسائل البقاء المادي وسُبل الرزق ولا يفهم آليات وحركيات المجتمع الذي يعيش فيه. ولكن مع الجيل الثاني تبدأ الأمور في التغير تدريجياً، ثم تصبح مختلفة بشكل جوهري مع الجيل الثالث الذي يتحرك أعضاؤه بكفاءة عالية داخل المجتمع الذي هاجر إليه أجداده لأنه يمتلك ناصية الخطاب اللغوي والحضاري. ويوجد الآن في أوربا والولايات المتحدة الأمريكية أقليات مسلمة لا يتحدث أعضاؤها اللغة العربية رغم أنهم من أصول عربية - أو آسيوية - ويتحدثون اللغة الإنجليزية بطلاقة ويفهمون المجتمع الأمريكي تمام الفهم، وهم قادرون تماماً على الحركة في داخله. ووجود مثل هذه الأقليات المتماسكة التي يصر كثير من أعضائها على ممارسة شعائر دينهم، كما يصرون على التعبير عن هويتهم الإثنية بشكل واضح، يزيد من حدة

التوتر، وبخاصة مع تزايد معدلات العلمنة في الغرب وما ينجم عن ذلك من تقويض للعقائد والهويات، الأمر الذي يجعل الإنسان الغربي غير قادر على إدراك دوافع أولئك الذين يحتفظون بعقائدهم وهوياتهم. ثم جاءت أحداث 11 أيلول/ سبتمبر فزادت من التوتر ومن عمق الإحساس بالخطر لدى العالم الغربي.

لكن إلى جانب هذه العناصر التي تؤدي إلى التوتر والفُرقة والاشتباك، توجد عناصر أخرى يمكن أن تساعد على التقارب والتفاهم والتصالح؛ وقد ذكرت من قبل نقاط التشابه في رؤية الكون بين الديانتين الإسلامية والمسيحية. وأشرت إلى أنها من أهم مصادر التوتر، إلا أننا يمكن أن نقول إن العكس أيضاً صحيح؛ فمصدر التوتر يمكن أن يكون هو نفسه نقطة انطلاق نحو التفاهم والتصالح. فالمفروض أن ما يحدد سلوك الإنسان هو رؤيته للكون، فكل من العقيدتين الإسلامية والمسيحية تدور حول مجموعة من المنظومات الأخلاقية المتشابهة. لأنه إذا كان الإله هو إله العالمين فهذا يفترض المساواة بين البشر، فكلنا لآدم وآدم من تراب. وإذا كان الإله مفارقاً إذاً، فإن هذا يفترض أيضاً مفهوماً معيناً تجاه الطبيعة وتجاه الذات وتجاه الجسد، كما يفترض وجود منظومات قيمية ليست كامنة في الإنسان، وإنما متجاوزة له، وهذه رقعة مشتركة بين الديانتين تشكل أرضية مشتركة، ويمكن أن تشكل إطاراً مرجعياً لنا جميعاً يمكننا الاحتكام إليه.

ويلاحظ أننا نقتسم مع الغرب حدود البحر الأبيض المتوسط لدرجة أن مفكراً مثل طه حسين كان لا يتحدث عن حضارة عربية وإنما عن حضارة حوض البحر الأبيض المتوسط. وأنا لا أتفق مع هذا المفكر الكبير على ما ذهب إليه، ولكن يوجد شيء من الحقيقة في موقفه، إذ إن هناك عناصر

مشتركة وإيكولوجيا مشتركة وحدوداً مشتركة. ويمكن القول إن التجربة الاستعمارية الغربية نفسها - شأنها شأن حروب الفرنجة - كانت إحدى قنوات التواصل بين الشرق والغرب، فالفرنجة حينما غزوا شرقنا العربي الإسلامي عرفوا عن العالم العربي الكثير من خلال الغزو. والشيء نفسه ينطبق على العالم الغربي حتى إنه يمكن القول إن إحدى مشكلات الولايات المتحدة الأمريكية أنها ليس لديها تجربة استعمارية، وبالتالي فهي غير مدركة لتركيبة مناطق كثيرة في العالم، بينما نجد أن لدى إنجلترا وفرنسا على سبيل المثال تجربة استعمارية. ويكون لدى الإمبراطوريات عادة إدراك لتنوع الشعوب، بينما نجد أن تجربة الرئيس الأمريكي جورج بوش الابن السياسية مثلاً محصورة في المعارك السياسية التي خاضها في ولاية تكساس، ولذا فهي تجربة ساذجة وبسيطة جداً.

ويمكننا الآن بعد هذه المقدمات اللغوية والمنهجية والفكرية أن نتطرق إلى موضوع هذه الدراسة؛ أي تأثير الصهيونية في علاقة الإسلام بالغرب. ويمكن القول إن ثمة عناصر كثيرة تباعد بين الحركة الصهيونية والعالم الغربي:

1. إن تقاليد العداء لليهود في الغرب متجذرة تماماً في الوجدان الغربي الديني والسياسي؛ فاليهودي هو قاتل المسيح في الرؤية المسيحية، وهو المرابي الذي يمص دم الفقراء في الوجدان الشعبي. ولكن يمكن القول إن هذا العداء لليهود لا يصب بالضرورة في المربع العربي، بل إنه يصب في المربع الصهيوني؛ فمن يكره اليهود فهو يريد أن يطردهم من بلدهم ويُرسل بهم إلى بلادنا فيتحولوا من مواطنين في بلادهم إلى مستوطنين استعماريين في بلادنا! فالصهيونية المسيحية على سبيل

المثال ترى ضرورة إرجاع اليهود إلى فلسطين لتنصير البعض وإبادة البعض الآخر.

2. من المفروض أن الغرب علماني يفصل الدين عن الدولة، وإسرائيل دولة يهودية كما تدَّعي، ولذا فمن المنطقي أن يشكل هذا عنصر تباعد.

3. إذا نظرنا إلى القضية بشكل محايد من منظور المصالح الاقتصادية، فإن المنطق يقول إن من مصلحة الغرب أن تُفتح الأسواق العربية أمامه (400 مليون أو 300 مليون عربي في مقابل 2 أو 3 ملايين إسرائيلي)، كما أن نسبة كبيرة من احتياطي النفط في العالم توجد في العالمين العربي والإسلامي. وأي حسابات اقتصادية رشيدة لابد من أن تغلِّب العلاقة مع العرب على العلاقة مع الجيب الصهيوني.

ثمة عناصر كامنة للتباعد وأخرى للتقارب بيننا وبين الغرب، فلماذا تغلَّبت عناصر التباعد على عناصر التقارب؟ ولماذا يؤيد العالم الغربي الجيب الصهيوني ويدعمه، ويعادي معظم الدول العربية والدول الإسلامية بسبب ذلك؟ للإجابة عن هذا وذاك سأبدأ حديثي بشرح مفهوم "الترشيد". الترشيد ببساطة هو إعادة صياغة الواقع بطريقة تضمن تعظيم الإنتاج وتحقيق أحسن النتائج من خلال أنجع الوسائل، وتوظيف المدخلات بطريقة تضمن تقليل العادم وتعظيم المردود، ويتم هذا من خلال عملية تخطيط مركبة وحسابات رشيدة دقيقة. هذه هي إجراءات الترشيد، وهي تقريباً واحدة. لكن الهدف من الترشيد والتوظيف يختلف من مشروع إلى آخر؛ فحينما قام المصريون القدماء ببناء الهرم الأكبر على

سبيل المثال، فإنهم أنجزوا هذا العمل المعماري الضخم من خلال عملية ترشيد ضخمة للعمالة ورسم خطط لنقل الحجارة وتوفير الطعام لآلاف العمال. وكان الهدف من بناء هذا الهرم واضحاً للحكام والمحكومين؛ وهو بناء صرح لتقديس الفرعون الذي كان رمزاً للإله ولمصر. وحينما قام المسلمون بالفتوحات الإسلامية حققوا انتصاراتهم من خلال عملية تخطيط مركبة، واستخدموا كثيراً من الإجراءات الترشيدية حتى يمكن تنظيم قواتهم وتزويدها بالمؤن وتحريكها في أرض المعركة، وكان الهدف واضحاً تماماً للجميع، وهو نشر الرسالة الإسلامية في العالم.

ويمكننا القول إن جوهر الحداثة الغربية هو أيضاً الترشيد، وقد بدأت عملية ترشيد المجتمعات الغربية في عصر النهضة مع مولد منظومة الحداثة. وكانت معدلات الترشيد في بداية الأمر بطيئة متعثرة، ولكن أصبح الإنسان الغربي في القرن التاسع عشر واعياً بأهمية الترشيد، فاندفعت الحضارة الغربية قدماً للأمام بخطى حثيثة لترشيد المجتمعات الغربية، ثم تزايدت معدلات الترشيد إلى أن تم ترشيد معظم مجالات الحياة: الإذاعة ـ التلفزيون ـ تخطيط المدن ـ العمران . . . إلخ، إن استمعت إلى نشرة الأخبار في التلفاز فهمت ما أقول: فأمام المذيع مثلاً خمس عشرة دقيقة ليغطي أخبار العالم: أوربا، الولايات المتحدة الأمريكية، الشرق الأوسط، أخبار الرياضة، أخبار النجوم، الأخبار الاقتصادية، بعض الطرائف والفضائح. وكي يستخدم المذيع الخمس عشرة دقيقة على أكمل وجه - وبشكل يقال له رشيد - يجب ألا يزيد الوقت الذي يستغرقه كل خبر عن كذا بايت (bite)، والبايت تستغرق كذا ثانية، ويتم تدريب المذيعين على الحديث بسرعة حتى يمكنهم تغطية كل الأخبار في الحيز

الزمني المسموح به. كما يتم تدريب الفنيين على كيفية عرض الأفلام المصاحبة للنشرة بسرعة. والهدف من كل هذا ليس نقل الأخبار وإعطاء المستمع الفرصة ليميز بين الغث منها والسمين، والصادق منها والكاذب، وإنما الهدف هو توصيل الخبر بسرعة، حتى يمكن توظيف الحيز الزمني في الإعلانات والبرامج الأخرى. بل إن الأخبار ذاتها تحولت تدريجياً إلى نوع من أنواع التسلية يُقال له (infortainment) أي المزيج من الأخبار والتسلية التي تمكن تسميتها "أخبار تسلية"!

وتم ترشيد الحيز المكاني الذي يتحرك فيه البشر لضبط حركتهم وتوظيفها توظيفاً رشيداً. ولنقارن الطرق في المدن الحديثة بالطرق في المدن القديمة؛ الطرق في المدن القديمة دائماً ملتفة ومتعرجة، أما في المدن الحديثة فالطرق مستقيمة لا التفاف فيها ولا دوران، وتحدَّد فيها سرعة السيارات، وتضبط حركتها من خلال إشارات المرور الضوئية. والشيء نفسه ينطبق على المنازل؛ فالمنازل في المدن القديمة تأخذ أشكالاً مختلفة تنبع من اعتبارات كثيرة بعضها غير رشيد إطلاقاً. أما الآن فالمنزل يُبنى في حيز حددته الدولة المركزية مسبقاً، وعادةً ما يأخذ شكلاً هندسياً محدداً كأن يكون مربعاً أو مستطيلاً، كما حددت الدولة المركزية شكل واجهته، فهي باعتبارها آلية الترشيد الكبرى تتدخل في كل كبيرة وصغيرة.

ولكن الهدف من الترشيد في المجتمع الغربي الحديث يدور في إطار مادي، فمنظومة الحداثة الغربية تصدر عن رؤية مادية، ترى أن ما يحرك العالم هو القوانين (والدوافع والقيم) المادية، وقد سموا هذه القوانين "القوانين الطبيعية" وسموا المادة "الطبيعة"، ولذا فأنا أشير إليها بأنها "الطبيعة/ المادة".

انطلاقاً من هذه الرؤية المادية لا تميز منظومة الحداثة الغربية بين الطبيعة/ المادة والإنسان، فالإنسان ما هو إلا كائن طبيعي/ مادي، تسري عليه القوانين الطبيعية/ المادية نفسها التي تسري على الأسود والذئاب والفراشات واليرقات. في هذا الإطار حُدِّد الهدف من وجود الإنسان في الكون بأنه تعظيم المنفعة واللذة "في إطار مادي". ومن هنا ظهر الإنسان الطبيعي/ المادي، أي الإنسان الذي يدور في إطار النموذج الطبيعي/ المادي: سماؤه هي السقف المادي، طموحه مادي، أحلامه مادية، أهدافه ودوافعه مادية. وبدلاً من إنسان مركب، متعدِّد الأبعاد، مفعم بالأسرار، مكوَّن من جسد وروح، ظهر إنسان تحرِّكه الدوافع الاقتصادية، فهو إنسان اقتصادي، أو يحرِّكه مبدأ اللذة، فهو إنسان جسماني، ومهما اختلفت الدوافع فهي تظل في نهاية الأمر وفي التحليل الأخير مادية، يمكن ردها إلى الطبيعة/ المادة، فهو إنسان طبيعي/ مادي.

وهَمّ هذا الإنسان الطبيعي/ المادي الأوحد هو تصعيد الاستهلاك، ولذا فعليه تسخير كل الموارد الطبيعية والبشرية التي من حوله لصالحه. والترشيد في الإطار المادي لا يكتفي بطبيعة الحال باختزال الإنسان لدوافعه المادية، بل لابد من إعادة صياغة المجتمع ذاته وكل مجالات الحياة ووحدات المجتمع إلى القاسم المشترك المادي، ومن ثم يتم استبعاد كل ما هو مركب ومتجاوز لسطح المادة حتى تسهل إدارة المجتمع لتحقيق الأهداف المادية.

انظر إلى أي إعلان في التلفاز تجد أن الإنسان الذي يظهر فيه يتحرك في إطار المنفعة الاقتصادية واللذة الجنسية، إنسان بسيط غير مركب وكل ما حوله بسيط مختزل إلى البعد المادي: مصدر السعادة في حالة إعلانات

السيارات هو اقتناء سيارة جديدة جميلة فارهة؛ سلعة قد تكون غير نافعة أو تتسم بصفات ليست بالضرورة نافعة، ولكنها بلا شك لذيذة، ومن هنا توجد بجوار السيارة دائماً فتاة شبه عارية تستخدم ساقيها لتوجيه أنظارنا إلى المزايا اللذيذة غير النافعة للسيارة. أما معجون الحلاقة فله فعل السحر، فإن اشتريت هذه السلعة النافعة اللذيذة، فستجد عدداً هائلاً من البنات اللذيذات يسقطن صرعى جمالك (وأعترف أنني جرَّبت هذه الوصفة السحرية، ولكن التجربة لم تحقق أياً من النتائج المرجوة منها ولو بنسبة ضئيلة). وهدف الإعلان اقتصادي نفعي؛ وهو بيع السلعة للإنسان الذي تحركه الدوافع الاقتصادية، ويتم ذلك من خلال مخاطبة غرائزه الجسدية التي يحركها مبدأ اللذة.

وكما أسلفنا تصاعدت معدلات الترشيد والاستهلاك في الإطار المادي داخل أوربا، فقامت الحكومات الغربية المختلفة بترشيد المجتمعات الغربية والإنسان الغربي في الإطار المادي، وحولتهم إلى مادة استعمالية توظَّف على أحسن وجه لصالح الدولة كما حددته النخبة الحاكمة. وقد مكَّنها هذا من ضبط حركة المجتمع وزيادة الإنتاجية وزيادة معدلات الاستهلاك فدارت الآلات، الأمر الذي أدى إلى ظهور ما أسميه "المسألة الأوربية"، وهي أن معدلات الاستهلاك في العالم الغربي تزايدت بدرجة لا تتناسب مع مصادر الغرب الطبيعية ولا حتى مع درجة إنتاجيته، ومن هنا ظهرت النزعة الإمبريالية. فقامت أوربا بتجييش الجيوش لفتح بقية العالم وتحويله إلى أسواق لسلعها ومصدر للمواد الخام والعمالة الرخيصة. وقامت هذه الجيوش بترشيد بقية العالم وتحويله إلى مادة استعمالية نُزعت عنها القداسة إلى أن أصبح العالم بأسره مجرد مساحة

ضخمة يسري عليها قانون (مادي) واحد. وعندما يسود التجانس الكامل أو شبه الكامل بين معظم المجتمعات البشرية أو كلها، يصبح العالم مكوناً من وحدات قد تكون غير مترابطة ولكنها متشابهة، ما يحدث في الواحدة يحدث في الأخرى، وهذا ما سماه ماكس فيبر "القفص الحديدي"، لأن العالم والمجتمع سيتحول إلى ما يشبه حالة المصنع.

ولكنني أرى أنه في المرحلة الاستهلاكية الحالية يتحول العالم إلى سوق ومصنع وناد ليلي، ليفي بالاحتياجات الاقتصادية والنفسية للإنسان الاقتصادي والجسماني. وهذه في تصوري هي العولمة؛ فهي تعني تحديث العالم وترشيده في الإطار المادي، مما يعني تنميطه وتحويله إلى سوق ومصنع وناد ليلي، بمعنى أن الحداثة تطوِّر العالم باتجاه أن يصبح متشابهاً منمَّطاً، وسوقاً واحدة، ومصانع متشابهة، ونوادي ليلية متنوعة. وحين يتحول العالم بأسره إلى مادة استعمالية، تصبح كل الأمور متساوية؛ أي نسبية.

ونسبية كل الظواهر والقيم هي نقطة انطلاق أساسية في منظومة الحداثة الغربية، فالعدل نسبي والظلم أيضاً نسبي، فلا يوجد قيم أخلاقية مطلقة. وسلوكنا العلمي يجب أن يكون متجرداً من القيمة (Value Free). ولكن هل العالم بالفعل محايد متجرد من القيمة؟! وكيف يمكن أن تُحسم النزاعات والصراعات إذاً، والنزاع والصراع – كما نعرف – من صميم الوجود الإنساني؟ في غياب قيم مطلقة يمكن الاحتكام إليها تظهر القوة كآلية وحيدة لحسم الصراعات وحل الخلافات وكمعيار أوحد للحكم على الظواهر. وقد أدى هذا كله إلى تبني الغرب للمنظومة الداروينية التي جعلته ينظر إلى نفسه باعتباره مركز العالم، وأن ينظر إلى العالم باعتباره

مادة استعمالية يوظفها لصالحه باعتباره الأكثر تقدماً وقوة. ولذا فإن منظومة الحداثة الغربية هي في واقع الأمر منظومة إمبريالية داروينية، فهي تفترض أن الهدف من وجود الإنسان في العالم هو تحقيق منفعته ولذته (في الإطار المادي) كما أسلفنا، ولذا لا يمكنه أن يحقق خلاصه إلا من خلال الاستهلاك وتصاعد معدلاته، وأن من حق صاحب القوة وحده أن يستهلك ويسعر استهلاكه، ولذا فعليه أن يوظف العالم وكل البشر لصالحه. كما تفترض هذه المنظومة أن المصادر الطبيعية (بما في ذلك الطاقة) لامتناهية (وهي مقولة ثبت خطؤها)، وأن أي خلل في النظام البيئي يمكن إصلاحه من خلال التقنية الآخذة دوماً في التقدم (وهو افتراض ثبت أنه ليس له أي أساس في الواقع) لأن التقدم يأخذ شكلاً خطياً متصاعداً دوماً (وهو مفهوم أدى إلى كوارث كثيرة).

وقد ترجمت منظومة الحداثة الإمبريالية الداروينية نفسها إلى تصاعد غير إنساني لمعدلات استهلاك المصادر الطبيعية وتسخيرها بشراسة لم يعهدها الكون من قبل. لهذا أدخلتنا هذه الحداثة كلنا، في الشرق والغرب، في طريق مسدود، إذ يستهلك سكان العالم الغربي البالغ عددهم 20٪ من سكان العالم حوالي 80٪ من مصادره الطبيعية الآن. وقد نجح الغرب في تصدير نموذجه الاستهلاكي لبقية العالم، الأمر الذي سيوردنا موارد التهلكة. كما أن تصاعد معدلات استهلاك الطاقة يهدد المنظومة الصناعية الغربية نفسها (يُقال إن الولايات المتحدة خلال 20 عاماً ستستورد 80٪ من احتياجاتها من النفط). ومن المفارقات أن معظم مصادر الطاقة في العالم توجد داخل العالم الإسلامي. وإذا أدركنا طبيعة منظومة الحداثة الإمبريالية الداروينية بسُعارها الاستهلاكي أمكننا تفسير شراسة

الإمبريالية الأمريكية تجاه العالم الإسلامي، وتحركها السريع في أفغانستان والعراق للتحكم في مصادر الطاقة سواء في بحر قزوين أو في بلاد العرب حمايةً لأمنها القومي كما حددته، وحفاظاً على عملية تدفق الطاقة بأسعار معقولة وعلى معدلات الاستهلاك العالية في الولايات المتحدة الأمريكية والعالم الغربي قاطبةً.

وانطلاقاً من الرؤية الحداثية الإمبريالية الداروينية نفسها لا ينظر إلينا الغرب باعتبارنا كياناً مستقلاً لنا طموحاتنا المشروعة وأهدافنا المختلفة، وإنما كمادة استعمالية لابد من تنميطها حتى ندخل في القفص الحديدي، قفص الإنتاج والاستهلاك، دون هدف أو غاية سوى المنفعة واللذة (في الإطار المادي). وإذا ما طرحنا أهدافاً أخرى مثل التمسك بالأرض والدفاع عن العزة والكرامة ورفض التنافس كنقطة مرجعية نهائية، فإنه يخفق في تصنيفنا وينظر إلينا باعتبارنا مخلوقات لاعقلانية. ومن ثم تصبح الهجمات الفدائية لتحرير الذات والوطن هجمات انتحارية، وهم يتحدثون الآن في الغرب عن "عبادة الموت" (The Cult of death) وكأن الشعب الفلسطيني الذي لم يعرف ظاهرة الانتحار عبر تاريخه، استيقظ فجأة في صباح يوم ملبَّد بالغيوم والغربان وعلامات الشؤم في السماء، وقرر في زهرة شبابه الانتحار لسبب غير مفهوم!

ومن العناصر الأخرى التي تؤجج العداء بين الإسلام والغرب ما يسمى "التمركز حول الغرب" (يورو سنترستي) (euro centricity)، فالغرب قد تمركز حول ذاته وجعل من نفسه مرجعية نهائية ومعياراً يحكم به على كل الظواهر والحضارات، ولذا فهو ينظر إلى العرب والمسلمين وإلى شعوب العالم الثالث قاطبة من منظور غربي محض. ولأضرب مثلاً

بسيطاً ولكن له دلالة عميقة: عندما ذهبت إلى الغرب في الستينيات كانت ملابس النساء مركبة للغاية ومحتشمة إلى حد كبير؛ ولذا من النقاط التي كانت تُذكر لتجريح العرب والأفارقة أن الراقصات الشرقيات يكشفن بطونهن وأن العري بين الرجال والنساء منتشر في أفريقيا، وكانت هذه الظواهر تعتبر مؤشراً أكيداً على التخلف. ثم اختلف الوضع تماماً وأصبحت ملابس النساء في الغرب تميل إلى البساطة إلى حد الاختفاء، وأصبحت تعرية البطن من علامات التقدم، ومن لا تكشف بطنها تعد أنثى محافظة متخلفة (ويلاحظ أنه في النوادي "الراقية" في العالم العربي تكشف البنات في الوقت الحاضر بطونهن بكفاءة ببغائية ليس لها نظير). وهكذا انقلبت الحال تماماً، وبعد أن كان الرداء هو رمز التحضر وترجمة متعينة للمعيارية الغربية المتفوقة، تغيرت هذه المعيارية وبدأت النساء في الغرب بالتعري، وأصبح العري ترجمة للمعيارية الغربية المتفوقة ومؤشراً أكيداً إلى التقدم!

ويسبب تمركز الغرب حول ذاته فهو يخفق تماماً في رصد ما يحدث عندنا من تطورات؛ ومن الملاحظ مثلاً أن الخطاب الإسلامي قد تغير وتحول وأصبح أكثر وعياً وتركيباً؛ فالجماعات الإسلامية تقبل الآن مفهوم التداول؛ والإخوان المسلمون في مصر على سبيل المثال يقبلون العمل من خلال القنوات السياسية الشرعية، وكثير ممن تسمى بالجماعات الإرهابية نبذت العنف تماماً. وتظهر تركيبية الفكر الإسلامي الحديث وشموليته في أنه طوَّر فكراً إسلامياً في العمران، وفكراً إسلامياً في النظرية السياسية، وفكراً إسلامياً في العلاقات الدولية، بمعنى أن الفكر الإسلامي يتطور لكن الغرب بسبب تمركزه حول نفسه يظل قابعاً داخل منظومته القديمة وداخل

خوفه من الإسلام والمسلمين والخطر الأخضر؛ ولذا فهو يصنف المقاومة الفلسطينية على أنها شكل من أشكال الإرهاب.

ولنعد الآن إلى موضوعنا الأساسي الإسلام والغرب، الغرب يتصور أنه قد فصل الدين عن الدولة، لكنه طبعاً عنده دين وهو الحداثة الإمبريالية الداروينية، وهي رؤية كاملة للكون، فالإله هو من يمتلك من القوة ما يمكِّنه من أن يُخضع الآخرين ويسخِّر الطبيعة. بهذا المعنى يوجد تصادم بين ديانتين: ديانة داروينية غربية حديثة تبغي التنميط والترشيد وتوظيف العالم لصالحها ترجمت نفسها إلى تشكيل إمبريالي في القرن التاسع عشر، ثم تترجم نفسها الآن إلى نظام دولي يدَّعي أنه عالمي وجديد، وديانة أخرى تدور حول مطلقات أخلاقية متجاوزة لعالم المادة. هذه الديانة تقاوم التفكيك والترشيد في الإطار المادي والخضوع للقوانين الإمبريالية الداروينية المادية. وتأخذ المقاومة أشكالاً كثيرة مثل رفض التنميط والخضوع للقمع والبطش، وقد حددت هذه الحضارة هويتها بطريقة تجعل من الصعب ترشيدها في الإطار المادي ثم ابتلاعها.

وأسباب التصادم هنا لا علاقة للصهاينة بها، فالصهيونية نتيجة وليست بسبب، وهم جزء لا كل. وإن أصررنا على أن الصهاينة (واليهود) هم سبب الصدام بيننا وبين العالم الغربي فلن نفهم طبيعة الصراع، ولن ندرك أسباب التصادم وآليات التصالح وإمكاناته. ويحدث الصدام على مستويات كثيرة لعل من أهمها ما يحدث في فلسطين، فالغرب قد رضي بأن يتحرك الصهاينة داخل الإطار الإمبريالي الدارويني وسمح للصهاينة أن يقوموا بتحويل فلسطين إلى مادة استعمالية، وتحويل الفلسطينيين إلى مجرد أشياء تُنقل من وطنها إلى خارجه، كما فعل

الغربيون في آسيا وأفريقيا والأمريكيتين. كل هذا شريطة أن يقوم الصهاينة بإنشاء دولة وظيفية، تكون مهمتها الأساسية خدمة المصالح الغربية في المنطقة ويقوم الغرب بالدفاع عنها وضمان بقائها واستمرارها. وقد نجح الغرب بالفعل في غرس الجيب الصهيوني في وسطنا، ونجح الجيب الصهيوني في أداء وظيفته، ولكنه نجح أيضاً في أن يكون المصدر الأساسي للتوتر بين العالمين الغربي والإسلامي.

ومع هذا لا يوجد حتمية للصراع، فإمكانية الحوار والتفاهم قائمة، ولكن لابد من أن نضع في الاعتبار أن الغرب برؤيته الإمبريالية الداروينية غير عقلاني. فمن يجعل القوة معياراً واحداً ووحيداً ولا يقبل الاحتكام إلى منظومة قيمية منفصلة عن الإنسان وقائمة بذاتها، هو إنسان غير عقلاني. فالعقلانية تفترض وجود معايير إنسانية وأخلاقية مطلقة خارج الإنسان، والسؤال الذي يطرح نفسه هو: كيف نتحاور في غياب معايير أخلاقية وإنسانية يمكن الاحتكام إليها والإهابة بها؟

أرى أن هناك ثلاثة مستويات للحوار:

1. الحوار بين الأنداد: وهو حوار بين طرفين، يعترف كل طرف بإنسانية الآخر وبحقوقه وسيادته. والهدف من الحوار هنا هو تسوية بعض الخلافات التفصيلية الجزئية، التي لا تنصرف إلى الكليات أو المنطلقات، وهذه هي طبيعة الحوار الذي يدور بين دولة عربية وأخرى في غالب الأحوال، وهو الحوار الذي يدور بيننا وبين بعض القطاعات في الغرب التي ترفض الرؤية الحداثية الإمبريالية الداروينية.

2. الحوار النقدي: إذا كان أحد الأطراف لا يعترف بإنسانية الآخر وحقوقه وسيادته، يكون من واجب الطرف الثاني أن يوجه النقد للطرف الأول ويبيِّن له خلل موقفه، ويدعم نقده بالحجج والبراهين، كما يحدث مثلاً حينما نحاور الدول الأوربية التي نختلف معها في بعض الأمور المبدئية، والتي تقبل الحوار ولا تلجأ إلى العنف.

3. الحوار المسلح: إن استمر الطرف الأول في إنكار إنسانية الطرف الثاني وحقوقه وسيادته، وحوَّل إنكاره هذا إلى فعل ظالم باطش؛ كأن يستولي على أرض الطرف الثاني أو يعتدي عليه، فإن من واجب الطرف المعتدى عليه أن يصده ويقاوم ظلمه وبطشه، بأن يرسل للظالم رسائل نقدية مسلحة ليؤكد إنسانيته وسيادته ويحصل على حقوقه المغتصبة. وهذا ما يحدث في فلسطين المحتلة؛ فالإسرائيليون ينكرون وجود الفلسطينيين، فيقوم الفلسطينيون بإرسال رسائل مسلحة لهم، تأخذ شكل انتفاضات شبه سلمية؛ مثل انتفاضة 1987، وانتفاضات مسلحة؛ مثل انتفاضة الأقصى. وهي رسائل تؤكد للإسرائيليين أن الشعب الفلسطيني صاحب الأرض، موجود وحي ويقاوم لاستعادة أرضه، وقد نجحت هذه الرسائل في أن تعيد للإسرائيليين بعض رشدهم؛ فقد بينت لهم أن فلسطين ليست أرضاً بلا شعب كما كان الادعاء الصهيوني.

وأقترح أن يتم الحوار مع الغرب والولايات المتحدة الأمريكية على جميع المستويات، نتحاور بشكل ودي عقلاني بخصوص الأمور المتفق عليها، وبشكل نقدي في الأمور التي نختلف بشأنها، وبشكل مسلح حينما يقع علينا عدوان منهم. ولابد من أن نتحاور على جميع

المستويات؛ فالحوار الودي بمفرده مع من يؤمن بالقوة معياراً يتيماً هو حوار لا يجدي فتيلاً، والحوار المسلح بمفرده يُدخلنا في طريق دموي مسدود. وهذا ما فعله الفيتناميون، فكانوا يجلسون على مائدة المفاوضات ويقومون بحملات إعلانية يتوجهون بها إلى أنصار السلام في العالم بما في ذلك الولايات المتحدة الأمريكية، ويوجهون النقد إلى المؤسسة العسكرية الأمريكية التي بطشت بالشعب الفيتنامي دون وجه حق، ويقاتلون في الوقت ذاته في ميدان الحرب بعزم وإصرار، وبذلك تم تحويل المكاسب الميدانية إلى مكاسب سياسية. الشيء نفسه ينطبق على الغرب، فالحوار معه يمكن أن يأخذ أشكالاً كثيرة، فلا يمكن أن نكتفي بحملة إعلامية لتجميل صورتنا في الخارج وتوضيح مشروعية موقفنا، إذ لابد من أن نرسل رسائل نقدية إلى الغرب، من خلال حملات إعلامية وحوارات مكثفة تبين له أن دعمه لإسرائيل وهجومه على العالم العربي لا يمكن أن يظل أمراً مجانياً.

ويجب علينا أن ندرك تماماً أنه في الإطار الدارويني لا يعطي الآخر إلا بمقدار ما يمارَس عليه من ضغط. ولذا علينا أن نحول حوارنا النقدي إلى حوار مسلح إذا استلزم الأمر، من خلال عمليات المقاطعة والتهديد بسحب الاستثمارات وكل أشكال المقاومة المتاحة، أي أنه يجب أن يدرك الآخر المعتدي أن هناك ثمناً لابد من أن يُدفع؛ وهم يفهمون تماماً مسألة الثمن هذه، يفهمونها بكفاءة عالية. هذا الضغط سيوصل إليهم الرسالة فيدركون أن ثمن تطبيق الرؤية الداروينية ثمن فادح، وقد يجعلهم هذا يعيدون النظر في سياستهم الممالئة لإسرائيل المعادية لنا والتي تستنزف قوانا. وكما قال رئيس الوزراء البريطاني جلادستون: ليس لنا أصدقاء

دائمون ولا أعداء دائمون، وإنما لنا مصالح دائمة. وأنا أذهب إلى أن التحالف بين إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية هو في نهاية الأمر تحالف تعاقدي، بمعنى أن إسرائيل تعربد في شرقنا العربي بإذن من الغرب دفاعاً عن مصالحه القومية وأمنه القومي، وهي تقوم بما تقوم به نظير أن يحميها الغرب ويوفر لها الاستمرار والاستقرار والأمن. وقد أدت إسرائيل واجبها نحو الغرب بكفاءة عالية وبأقل التكاليف، فإن أصبحت إسرائيل مكلفة فستختلف الأوضاع كثيراً، وسيعود الغرب إلى رشده، وسيكتشف أننا كيان مستقل له طموحاته ورؤيته ومصالحه المستقلة، حينئذ سيكتشفون أن أريل شارون ليس رجل سلام كما ادعى جورج بوش، وإنما هو جزّار يغتصب أرض الآخرين فيحتلها ويبني عليها المستوطنات ويطرد أصحابها ويقتِّلهم، وأن الفلسطينيين يقومون بما يجب عليهم أن يقوموا به ضد الظلم والعدوان. وهذه عملية ترشيد تتم خارج الإطار الداروني وداخل إطار أخلاقي إنساني، لتحقيق أهداف دينية وأخلاقية وإنسانية؛ مثل التصدي للظلم وإقامة العدل في الأرض وإعطاء كل ذي حق حقه.

نبـــذة عـــن المحاضـــر

د. عبدالوهاب محمد المسيري

حصل على درجتي الماجستير من جامعة كولومبيا والدكتوراه من جامعة رتجرز في الأدب الإنجليزي المقارن، وهو أستاذ غير متفرغ في جامعة عين شمس، وعضو مجلس الأمناء لجامعة العلوم الإسلامية والاجتماعية في الولايات المتحدة الأمريكية، وأستاذ زائر بجامعة ماليزيا الإسلامية بكوالالمبور، وبأكاديمية ناصر العسكرية.

أصدر الدكتور المسيري عدداً كبيراً من الكتب من أهمها: **موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية**، و**نهاية التاريخ: مقدمة لدراسة بنية الفكر الصهيوني**، و**الأيديولوجية الصهيونية: دراسة حالة في علم اجتماع المعرفة**، و**الانتفاضة الفلسطينية والأزمة الصهيونية**، و**الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ**، و**إشكالية التحيز**، و**الفردوس الأرضي: دراسات وانطباعات عن الحضارة الأمريكية**. كذلك أصدر عدداً من الكتب باللغة الإنجليزية منها: ***The Land of Promise: Critique of Political Zionism*** وكتاب ***Israel And South Africa: The Progress of A Relationship***.

كتب العديد من الدراسات والمقالات في الصحف والمجلات والحوليات العربية والأجنبية، كما قام بكتابة المداخل الخاصة بالصهيونية والانتفاضة الفلسطينية في عدد من الموسوعات والكتب والمراجع المتخصصة. وقد ترجمت بعض أعماله إلى عدد من اللغات.

صدر من سلسلة
محاضرات الإمارات

1. بريطانيا والشرق الأوسط: نحو القرن الحادي والعشرين

مالكولم ريفكند

2. حركات الإسلام السياسي والمستقبل

د. رضوان السيد

3. اتفاقية الجات وآثارها على دول الخليج العربية

محمد سليم

4. إدارة الأزمات

د. محمد رشاد الحملاوي

5. السياسة الأمريكية في منطقة الخليج العربي

لينكولن بلومفيلد

6. المشكلة السكانية والسلم الدولي

د. عدنان السيد حسين

7. مسيرة السلام وطموحات إسرائيل في الخليج

د. محمد مصلح

8. التصور السياسي لدولة الحركات الإسلامية

خليل علي حيدر

9. الإعلام وحرب الخليج: رواية شاهد عيان

بيتر آرنيت

10. الشورى بين النص والتجربة التاريخية

د. رضوان السيد

11. مشكلات الأمن في الخليج العربي
منذ الانسحاب البريطاني إلى حرب الخليج الثانية

د. جمال زكريا قاسم

12. التجربة الديمقراطية في الأردن: واقعها ومستقبلها

هاني الحوراني

13. التعليم في القرن الحادي والعشرين

د. جيرزي فياتر

14 - تأثير تكنولوجيا الفضاء والكومبيوتر على أجهزة الإعلام العربية

محمد عارف

15 - التعليم ومشاركة الآباء بين علم النفس والسياسة

دانييل سافران

16 - أمن الخليج وانعكاساته على دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية

العقيد الركن/ محمد أحمد آل حامد

17 - الإمارات العربية المتحدة «آفاق وتحديات»

نخبة من الباحثين

18 - أمن منطقة الخليج العربي من منظور وطني

صاحب السمو الملكي الفريق أول ركن
خالد بن سلطان بن عبدالعزيز آل سعود

19 - السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط والصراع العربي - الإسرائيلي

د. شبلي تلحمي

20 - العلاقات الفلسطينية - العربية من المنفى إلى الحكم الذاتي

د. خليل شقاقي

21 - أساسيات الأمن القومي: تطبيقات على دولة الإمارات العربية المتحدة

د. ديفيد جارنم

22 - سياسات أسواق العمالة في دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية

د. سليمان القدسي

23 - الحركات الإسلامية في الدول العربية

خليل علي حيدر

24 - النظام العالمي الجديد

ميخائيل جورباتشوف

25 - العولمة والأقلمة: اتجاهان جديدان في السياسات العالمية

د. ريتشارد هيجوت

26 - أمن دولة الإمارات العربية المتحدة: مقترحات للعقد القادم

د. ديفيد جارنم

27 - العالم العربي وبحوث الفضاء: أين نحن منها؟

د. فاروق الباز

28 - الأوضاع الاقتصادية والسياسية والأمنية في روسيا الاتحادية

د. فكتور ليبيديف

29. مستقبل مجلس التعاون لدول الخليج العربية

د. ابتسام سهيل الكتبي

د. جمال سند السويدي

اللواء الركن حيي جمعة الهاملي

سعادة السفير خليفة شاهين المرر

د. سعيد حارب المهيري

سعادة سيف بن هاشل المسكري

د. عبدالخالق عبدالله

سعادة عبدالله بشارة

د. فاطمة سعيد الشامسي

د. محمد العسومي

30. الإسلام والديمقراطية الغربية والثورة الصناعية الثالثة: صراع أم التقاء؟

د. علي الأمين المزروعي

31. منظمة التجارة العالمية والاقتصاد الدولي

د. لورنس كلاين

32. التعليم ووسائل الإعلام الحديثة وتأثيرهما في المؤسسات السياسية والدينية

د. ديل إيكلمان

33. خمس حروب في يوغسلافيا السابقة

اللورد ديفيد أوين

34. الإعلام العربي في بريطانيا

د. سعد بن طفلة العجمي

35. الانتخابات الأمريكية لعام 1998

د. بيتر جوبسر

36. قراءة حديثة في تاريخ دولة الإمارات العربية المتحدة

د. محمد مرسي عبدالله

37. أزمة جنوب شرقي آسيا: الأسباب والنتائج

د. ريتشارد روبيسون

38. البيئة الأمنية في آسيا الوسطى

د. فريدريك ستار

39. التنمية الصحية في دولة الإمارات العربية المتحدة من منظور عالمي

د. هانس روسلينج

40. الانعكاسات الاستراتيجية للأسلحة البيولوجية
والكيماوية على أمن الخليج العربي

د. كمال علي بيوغلو

41. توقعات أسعار النفط خلال عام 2000 وما بعده
ودور منظمة الأوبك

د. إبراهيم عبدالحميد إسماعيل

42. التجربة الأردنية في بناء البنية التحتية المعلوماتية

د. يوسف عبدالله نصير

43. واقع التركيبة السكانية ومستقبلها
في دولة الإمارات العربية المتحدة

د. مطر أحمد عبدالله

44. مفهوم الأمن في ظل النظام العالمي الجديد

عدنان أمين شعبان

45. دراسات في النزاعات الدولية وإدارة الأزمة

د. ديفيد جارنم

46. العولمة: مشاهد وتساؤلات

د. نايف علي عبيد

47. الأسرة ومشكلة العنف عند الشباب (دراسة ميدانية لعينة من الشباب
في جامعة الإمارات العربية المتحدة)

د. طلعت إبراهيم لطفي

48. النظام السياسي الإسرائيلي: الجذور والمؤسسات

د. بيتر جوبسر

49. التنشئة الاجتماعية في المجتمع العربي في ظروف اجتماعية متغيرة
د. سهير عبدالعزيز محمد

50. مصادر القانون الدولي: المنظور والتطبيق
د. كريستوف شرور

51. الثوابت والمتغيرات في الصراع العربي-الإسرائيلي
وشكل الحرب المقبلة
اللواء طلعت أحمد مسلم

52. تطور نظم الاتصال في المجتمعات المعاصرة
د. راسم محمد الجمال

53. التغيرات الأسرية وانعكاساتها على الشباب الإماراتي:
تحليل سوسيولوجي
د. سعد عبدالله الكبيسي

54. واقع القدس ومستقبلها في ظل التطورات الإقليمية والدولية
د. جواد أحمد العناني

55. مشكلات الشباب: الدوافع والمتغيرات
د. محمود صادق سليمان

56. محددات وفرص التكامل الاقتصادي بين
دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية
د. محمد عبدالرحمن العسومي

57. الرأي العام وأهميته في صنع القرار
د. بسيوني إبراهيم حمادة

58. جذور الانحياز: دراسة في تأثير الأصولية المسيحية
في السياسة الأمريكية تجاه القضية الفلسطينية
د. يوسف الحسن

59. ملامح الاستراتيجية القومية في النهج السياسي
لصاحب السمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان
رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة
د. أحمد جلال التدمري

60. غسل الأموال: قضية دولية

مايكل ماكدونالد

61. معضلة المياه في الشرق الأوسط

د. غازي إسماعيل ربابعة

62. دولة الإمارات العربية المتحدة: القوى الفاعلة في تكوين الدولة

د. جون ديوك أنتوني

63. السياسة الأمريكية تجاه العراق

د. جريجوري جوز الثالث

64. العلاقات العربية ـ الأمريكية من منظور عربي:

الثوابت والمتغيرات

د. رغيد كاظم الصلح

65. الصهيونية وتأثيرها في علاقة الإسلام بالغرب

د. عبدالوهاب محمد المسيري

قسيمة اشتراك في سلسلة

«محاضرات الإمارات»

الاسم : ....

المؤسسة : ....

العنوان : ....

ص.ب : .... المدينة :

الرمز البريدي : ....

الدولة : ....

هاتف : .... فاكس :

البريد الإلكتروني : ....

بدء الاشتراك : (من العدد: .... إلى العدد :

رسوم الاشتراك*

للأفراد:	110 دراهم	30 دولاراً أمريكيا
للمؤسسات:	220 درهماً	60 دولاراً أمريكياً

- ☐ للاشتراك من داخل الدولة يقبل الدفع النقدي، والشيكات، والحوالات النقدية.
- ☐ للاشتراك من خارج الدولة تقبل الحوالات المصرفية فقط شاملة المصاريف فقط.

على أن تسدد القيمة بالدرهم الإماراتي أو بالدولار الأمريكي باسم مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية.

حساب رقم 1950050565 - بنك أبوظبي الوطني - فرع الخالدية

ص.ب: 46175 أبوظبي - دولة الإمارات العربية المتحدة

ترجى موافاتنا بنسخة من إيصال التحويل مرفقاً مع قسيمة الاشتراك إلى العنوان التالي:

مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية

قسم التوزيع والمعارض

ص.ب: 4567 أبوظبي - الإمارات العربية المتحدة

هاتف: 6424044 (9712) فاكس: 6426533 (9712)

البريد الإلكتروني: books@ecssr.ac.ae

الموقع على الإنترنت: Website: http://www.ecssr.ac.ae

* تشمل رسوم الاشتراك الرسوم البريدية، وتغطي تكلفة اثني عشر عدداً من تاريخ بدء الاشتراك.

مـركـز الإمـارات للـدراسـات والبحـوث الاستـراتيجيـة

ص.ب: 4567 . أبوظبي . دولة الإمارات العربية المتحدة. هاتف: 6423776-9712+ ، فاكس: 6428844-9712+
البريد الإلكتروني : pubdis@ecssr.com ، الموقع على الإنترنت : www.ecssr.com

ISSN 1682-122X

ISBN 9948-00-438-8

9 789948 004387